



فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه
أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب

الله
١٣١٥

يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤتيا الحكمة فقد أوتي
خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب

قال عليه الصلاة والسلام: إن للاسلام صوي و«ناراه كمنار الطريق»

(١٦ - ١٩ جادى الأولى سنة ١٣٢٣ - ١٩ يوليو (تموز) سنة ١٩٠٥)

مصائب الإسلام • بموت الاستاذ الامام

مات الاستاذ الامام ولو كان كبر النفوس وطهارة الارواح وعلو
الهمم مما يحول دون الموت لما مات أبدا ولكن كل حي يموت إلا الحي القيوم
«إنا لله وإنا إليه راجعون»

مات الاستاذ الامام فمات ذلك العلم الواسع، والحكمة البالغة، والحجة
الناطقة، والمعارف الكونية والالهية، والمعلوم الكسبية والادنية، مع البيان
الساحر، والأدب الباهر، والبلاغة التي تمتلك العقول والقلوب، والفصاحة
التي تستهوي الاسماع والنفوس،

مات الاستاذ الامام فمات تلك الاخلاق القدسية، والشجائل الحمديّة،
والصدق في القول والفعل، والاخلاص في السر والجمهور، والوفاء في القرب
والبعد، والسخاء في العسر واليسر، والعفة في الشباب والكهولة، والحلم عند
الغيظ والمفاضبة، والمنوم مع القدرة على المواخذة، والتواضع وخفض
الجناح للمخلصين، والشهامة والترفع على المنافقين والمستكبرين، والدين للحق
وأهله، والشدة على الباطل وجنده، والشجاعة التي تنهاها الأصرار والمظالم،
والقناعة التي رفعت رأسه فوق الرؤساء

مات الاستاذ الامام فمات تلك الاعمال النافعة، والمشروعات الرافعة،
والمساعي الجديدة، والوسائل المنفيدة، والاجتهاد في ترقية الأمة، والدفاع
عن الملة، والدعوة إلى التوحيد والتأليف، والأشتغال بأفضل التعليم والتأديب،
والترية الصحيحة للمريدين، والجمع بين علوم الدنيا والدين، ومواساة البائسين
والموزين، وكفالة أولاد الفقراء والمساكين،

مات الاستاذ الامام فمات تلك الآمال البعيدة، والمقاصد الحميدة،

التي كانت مطوية في ذلك الجرم الصغير ، الذي انطوى فيه العالم الكبير ،
 تلك الآمال التي تنضال دونها هم الملوك والأمرء . وتتصاغر أمامها
 نفوس الزعماء والأغنياء ، الذين هم عن استعمال واهبهم مصر وفون ، وعن
 الثقة برهم محجوبون ، وعن سنته في خلقه غافلون ،

مات الاستاذ الامام فراع موته الناس ، من جميع الطوائف والاجناس ،
 فلم علماء الدين ، أنهم فمدوا ركنهم الركين ، الذي يحمل عنهم رد الشبهات ،
 وغير ذلك من فروض الكفايات ، وعلماء الدنيا ، أنهم خسروا ركنهم
 الاقوى ، الذي يدفع عنهم مطاعن المتعصبين ، وتكفير الجامدين ، ووثبت
 ان الاسلام جمع بين المصلحتين ، ولا يتم ذلك الا بالجمع بين العلمين ،
 وشعر طلاب الإصلاح بأنهم قد دوا إمامهم العظيم ، الذي كملت فيه
 صفات الزهيم ، وأحسن الفقراء والمساكين ، بأنهم رزءوا بكافل اليتامى
 وغوث العاجزين ، ولم يجهل القائمون بالشؤون العامة ، شدة وقع هذه
 الطامة ، وأنهم تكبوا بصاحب الرأي الناقد ، والعمل النافع ، مربى
 الرأي العام في الشورى والجمعية العمومية ، صاحب اليد البيضاء في الاوتاد
 الاسلامية ، المضطلع باصلاح الأزهر والمحاكم الشرعية ، المناهض بأعباء
 الجمعية الخيرية ، الموفق بين الحكومة والرعية ، واعترف أهل الملل بأن
 مصابه مصاب الانسانية ، والخسارة الكبرى على العلم والمدنية ،

مرض هذا البرّ الرحيم فكان على فراش الموت يسأل عن بعض
 الضعفاء ، ويبحث عن مساكن القواعد من النساء ، ليواسيهم بالبر ، من
 وراء السترة ، وقال لي ان فلانا قريب قد انقطع عن السفر بدين عليه ،
 وانني مستغن الآن عن مئة جنيه فان كانت كافية ارسلها اليه ، ولكنه غاب

عن الوجود ، قبل ان يقضي لباته من البر والجلود ،
مرض هذا المصلح العظيم فاضطربت الامة المصرية لمرضه فكانت
الدار التي يمرّض فيها كعبة المائدين من العلماء والاصراء والوزراء والادباء
والفضلاء والفقراء والأغنياء وكان البرق يناجها كل يوم مع البريد ،
باليابة عن الماجز والبيد ، سائلين عن صحته ، أو مهئين بما يقال عن
راحته ، فكان بحمد الله ان جعل الدهماء من أمته يعرفون لخادمها
خدمته ، ويشكرون للعامل لها عمله ، ويقولون لئن شفيت لاجهدن النفس
في خدمتهم اجمين ، حتى أكون حرضا أو أكون من الهالكين ،
مرض الاستاذ الامام ، فلم يبقه المرض عن خدمة المسلمين والاسلام ،
واختصر الاستاذ الامام ، وهو يفكر في مصلحة المسلمين والاسلام ،
ومات الاستاذ الامام ، وهو يتهب خيرة على المسلمين والاسلام ،
نقول مات الاستاذ الامام فبصدى القول ونعيده نصر الحس ،
ونكار النفس ، فقد كادت تحسب ان موته رؤيا منام ، وأضغاث أحلام ،
وما هو الا الحق اليقين ، ومصير الاولين والآخريين ، « وما جعلنا لبشر من
قبلك الخلد أفان مت فهم الخالدون » كل نفس ذائقة الموت وتبلوكم بالبشر
والخير فتنه والينا ترجمون » مات استاذنا وإمامنا ولك اللهم البقاء فلا
تقتنا بعده ، ولا تحرنا أجره ، واغفر اللهم لنا وله ،
نعم إنه قد مات ولكن لم تمت علومه ومعارفه ، وما آثره وعوارفه ،
فلقد ربى أرواحا ، واصلح إصلاحا ، وألف كتبا ، ورث علماء وأدباء ،
وأما سناسيته له أجر إمامتها وأحيا سننا حسنة له أجرها وأجر من يصل
بها ، وعلمنا كيف تفهم القرآن ، وقيم شرائع الاسلام ، مع توخي تقع

الناس أجمعين ، والاخلاص لله رب العالمين ،

مات أستاذنا وإمامنا فكبر علينا موته ولكنه ربانا على الصبر ووطننا
كيف تعزى عنه حتى في مرض موته ، فقد كان هجيرا في تلك الكربات
والكربات ، كلمة الله التي أمرنا بتكرارها في الصلوات . (الله أكبر) فلئن
كان بفضل الله كبيرا نيا فانه أكبر ، ولئن كان مرضه وموته كبيرا علينا
فانه أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، ومن يتصم بالله فقد
هدي إلى صراط مستقيم

لبي دعوة ربه برمل الاسكندرية في الساعة الخامسة بعد الزوال من
يوم الثلاثاء ثامن جمادى الاولى فنهض البرق بآلاته الناطقة والكاتبة الى
العاصمة وغيرها من مدن القطر فاضطربت لنيه القلوب وفرفت العيون
واسترجعت الألسنة وحوقلت وطلق الناس بعزى بعضهم بمضامنتين
على ان المصائب به عام ، وأشد وقعها على المسلمين والاسلام ، وما كنت
تسمع من القريب والغير ، والبنيض والحبيب ، والوطني والاجنبي ،
والرشيذ والنوي ، والعالم والجاهل ، والمنفصول والفاضل ، إلا كلمة « خسارة
لا تعوض » أو كلمة « عوض الله الأمة به خيرا » أو قول الشاعر

وما كان فيسارزده رزء واحد ولكنه ببيان قوم تهلما

أو قول الآخر

ولكن الرزية فقد حر يموت لموته خلق كثير

وقد اجتمع مجلس النظار فقرر ان تحتفل الحكومة رسميا بتشييع
جنازته في الاسكندرية ومصر وان تنقل جثته على قطار خاص الى العاصمة
فعلت وشاركتها الأمة ونزلاؤها واحتلون بهذا التشييع الذي لم يسبق

مثله لغيره حتى كان ينجيل للمشيح انه لم يبق أحد من سكان الاسكندرية ولا من سكان القاهرة الا وقد حضر ليودع هذا الامام الوداع الاخير وقد صلي عليه في الجامع الأزهر ودفن في قرافة المجاورين بفضل الله وبرحمته ورضوانه ، وأسكنه فسيح جناته

ولما كان المنار هو الداعي الى الانتفاع بهذا الامام المصلح في حياته ، فجدير به ان يرشد الى الاستفادة بسيرته بعد مماته ، فلا نطيل في الرثاء والتأبين وان كان بالحق ، ولكننا نقص على القراء ملخص سيرته مع التزام الصدق ، ليظهر لهم كيف تعلم وتربي حتى صار إماما حكيما ، وماذا عمل حتى صار مصاحفا عظيما ، وسنضع له تاريخا معلولا تفصل فيه ما أجلنا ، ونشرح فيه ما خلصنا ، ونودعه كثيرا من رسائله ومكاتبته ، وخطبه ومقالاته ، وما كتب به اليه بعض العلماء والمعلماء ، ومقاله فيه نوايح الكتاب والشراء ، وما ابتته به الجرائد ، وما رثي به من غرر القاصد ، ونسأل الله تعالى ان يحسن عزاءنا وعزاء الامة فيه ، ويوفقنا في مصابنا لما يحبه سبحانه ويرضيه ،

ملخص سيرة الاستاذ الامام

(اصه ونسب ومولده)

هو محمد بن عبده بن حسن خير الله من مديرية البحيرة في القطر المصري . وبيت خير الله تركاني الأصل كما اخبرنا الفقيه رحمه الله تعالى ولا اذ كرهه شيئا من تاريخ قدوم عشيرتهم الى القطر المصري الا أنهم كانوا يقيمون في الخيام وان علي باشا مبارك اخبره ان عبد اللطيف البغدادي المؤرخ الشهيرة كرفي الرحلة الكبرى انه جاء (محلة نصر) ونزل ضيفا في بيت التركاني . واهم من عشيرة كبيرة في مديرية الغربية تعرف بمائلة عثمان وتنسب

إلى بني عدي قبيلة سيدنا عمر بن الخطاب ويقال إنها من ذريته . وكان والده
شهما شجاعا وقورا سخي النفس وكانت والدته برة رحيمة بالمساكين ذكية
التوراد شديدة الحياء ولا أبسدا إذا قلت ان والديه كانا من أسلم الناس فطرة
وأحسنهم خلقا . وكانت هذه الاخلاق فيهما موروثه ومكتسبة بالمعاشرة
والقدوة لا بتعليم المدارس ولا بتأديب المعلمين . وهذا أصل عظيم في استعداد
الرجل لما وصل اليه من الكمال الذي لم يرو ولم نسمع بمثله وقد قال صلى الله عليه
وسلم « الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام اذا فقهوا »
رواه البخاري ومسلم

ولد قدس الله تعالى روحه في أواخر سنة خمس وستين أو ست وستين
ومئتين وألف من الهجرة الشريفة (روايتان من كتابته) في قرية من قرى
مديرية الغربية كان والده هاجر إليها هو وأخوه بهنس فرارا من ظلم حكام
مديرية البحيرة في أواخر حكم محمد علي باشا الكبير وكان له قرابة في تلك
القرية وفي أثناء إقامته فيها كان يتردد إلى بعض القرى القريبة فيها ويتعارف
هو وأهلها فأدى ذلك التعارف إلى المصاهرة إذ تزوج بوالدة التقيد وهي
من قرية تسمى (حصه شبشير) قرية من مدينة طنطا وأقام معها في قرية
تسمى (شتر) إلى أواخر مدة عباس باشا الأول والي مصر ثم أُلجأته
الحوادث بمذالك إلى الرجوع إلى بلده وهي قرية تسمى (محلة نصر) في
البحيرة وفيها نشأ وترعرع

تعليمه وتربيته

نشأ كما ينشأ أمثاله من أبناء البيوت المروفة في القرى ولم يدخل
المكتب لتعلم القراءة والكتابة إلا بعد أن تجاوز العاشرة من سنه وقد

كتب هو عن مبدإ نطقه وتأدبه مانصه : « تعلمت القراءة والكتابة في منزل والدي ثم انتقلت الى دار حافظ قرآن قرأت عليه وحدي جميع القرآن أول مرة ثم أعدت القراءة حتى أتت حفظه جميعه في مدة سنتين ادركني في ثابتهما صبيان من أهل القرية جاءوا من مكتب آخر ليقرأوا القرآن عند هذا الحافظ فلما منهم ان نجاحي في حفظ القرآن كان من أثر اهتمام الحافظ . بعد ذلك جاني والدي الى طنطا حيث كان أخي لأبي الشيخ مجاهد رحمه الله لأجود القرآن في المسجد الاحمدي لشهرة قرائه بفنون التجويد وكان ذلك في سنة ١٢٧٩ هجرية

ثم في سنة احدى وعشرون جلست في دروس العلم وبدأت بتلقي شرح الكفراوي على الأجرومية في المسجد الاحمدي بطنطا وتضيت سنة ونصفاً لأنهم شيئاً رداءة طريقة التعليم فان المدرسين كانوا يفاخروننا باصطلاحات نحوية أو فقهية لا تفهمها ولا عناية لهم بتفهم معانيها لمن لم يعرفها فأدركني اليأس من النجاح وهربت من المدرس واختفيت عند اخوالي مدة ثلاثة أشهر ثم عليّ أخي فأخذني الى المسجد الاحمدي وأراد اكرامني على طلب العلم فأبيت وقلت له : قد أيقنت ان لا نجاح لي في طلب العلم ولم يبق عليّ الا أن اعود الى بلدي واشتغل بملاحظة الزراعة كما يشتغل الكثير من أقاربي : وانتهى الجدال بتقلي عليه فأخذت ما كان لي من ثياب ومتاع ورجعت الى محلة نصر على نية ان لا أعود الى طلب العلم وتزوجت في سنة ١٢٨٢ على هذه النية

« فهذا أول أثر وجدت في تسمي من طريقة التعليم في طنطا وهي يمينها طريقته في الازهر وهو الار الذي يجده خمسة وتسعون في المئة ممن

لا ياعددهم القدر بصحة من لا يتعمون هذه السبيل في التعليم - سبيل
إلقاء العلم ما يعرفه أو مالا يعرفه بدون ان يراعي المتعلم ودرجة استعداده
لأنهم غير ان الاغلب من الطلبة الذين لا يفهمون أنفسهم أنفسهم فيظنون
أنهم فهموا شيئاً فيسترون على الطلب الى أن يلبثوا سن الرجال، وهم في
أحلام الاطفال، ثم يتلى بهم الناس وتصاب بهم الامامة فتعظم بهم الرزية
لأنهم يزيدون الجاهل جواراً ويضلون من توجد عنده داعية الاسترشاد
ويؤفون بدعاويهم من يكون على شيء من العلم ويحولون بينه وبين
تعم الناس بطله

بعد ان تزوجت بارتين يوماً جاءني والدي ضعوة نهار وأرمني
بالذهاب الى طنطا لطلب العلم وبعد احتجاج وتمنع وإباء لم أجد مندوحة
من إطاعة الأمر ووجدت فرساً أحضر فركته وأصحبني والذي بأحد
أقارب وكان قوي البنية شديد البأس ليشيني الى محطة (إيتاي البارود)
التي أركب منها قطار السكة الحديدية الى طنطا . كان اليوم شديد الحر
والرياح عاصفة مائبة سافياء ، تمصب الوجه بشبه الرمضاء ، فلم أستطع
الاستمرار في السير فقلت لصاحبي أما مداومة المسير فلا طاقة لي بها مع
هذه الحرارة ولا بد من التعرّيج على قرية أنتظر فيها ان يخف الحر، فأبى عليّ
ذلك فتركته واجريت الفرس هارباً من مشافته وقلت اني ذاهب الى
(كيننة ادوين) - بلدة غالب سكانها من خوولة ابي - وقد فرح بي
شبان القرية (*) لانني كنت معروفاً بالفروسية واللعب بالسلاح وأهلوا

(*) في العبارة ايجاز بديع بالحذف اذ لم يذكر انه وصل الى القرية ولقي شبانها بل
هو ذلك لئلا ما يبدد عليه . وقد اتقدي رحمه الله في هذا بأسلوب الكتاب التفرغ

أن أقيم معهم مدة يلبو فيها كل منا بصاحبه . أدركني صاحبي وبقي معي الى مصر وأرادني على السفر فقلت له خذ القرص وارجع وسأذهب صباح الغد وان شئت قلت لوالذي انني سافرت الى طنطا فانصرف وأخبر بما أخبر وبقيت في هذه القرية خمسة عشر يوما تحولت فيها حالتي ، وبدلت فيها رغبة غير رجعتي ،

« ذلك ان أحد اخوال أبي واسه الشيخ درويش سبقت له أسفار الى صحراء ليبيا ووصل في أسفاره الى طرابلس الغرب وجلس الى السيد محمد المدني والد الشيخ ظافر المشهور الذي كان قد سكن الامتانة وتوفي بها وتعلم عنده شيئا من العلم واخذ عنه الطريقة الشاذلية وكان يحفظ الموطأ وبعض كتب الحديث ويجيد حفظ القرآن وفهمه ثم رجع من أسفاره الى قرنته هذه واشتغل بما يشتغل به الناس من فلاح الأرض وكسب الرزق بالزراعة » وإن هذا الشيخ جاءني صبيحة الليلة التي بها في الكنيصة ويده

كتاب يحتوي على رسائل كتبتها السيد محمد المدني الى بعض مريديه بالأطراف بخط مغربي دقيق وسألني ان أقرأ له فيها شيئا لضعف بصره فدفت طلبه بشدة ولغت القراءة ومن يشتغل بها وتفرقت منه أشد الفطور ولما وضع الكتاب بين يدي رميته إلى بعيد لكن الشيخ تبسم وتجمل في أظف مظاهر الحلم ولم يزل بي حتى أخذت الكتاب وقرأت منه بضعة أسطر فاندفع يصر لي معاني ماقرأت بصارفة واضحة تقالب إعراضي فتنبه وتبني إلى نفسي . وبعد قليل جاء الشبان يدعونني الى ركوب الخيل والامب بالسلاح والسباحة في نهر قريب من القرية فرميت الكتاب وانصرفت اليهم . بعد العصر جاءني الشيخ بكتابه وألح علي في قراءة شيء منه

فقرأت وفسرتم تركته إلى اللب وفعل في اليوم الثاني كما فعل في الأول
 أما اليوم الثالث فقد بقيت اقرأ له فيه وهو يشرح لي معاني ما أقرأ نحو
 ثلاث ساعات لم أزل فيها فقال لي إني في حاجة إلى الذهاب إلى المزرعة
 ليعمل بعض العمل فيها فطلبت منه إبقاء الكتاب معي فتركه ومضت
 أقرأه وكلما سررت بعبارة لم أفهمها وضمت عليها علامة لأسأله عنها إلى
 أن جاء وقت الظهر وعصيت في ذلك اليوم كل رغبة في اللب وهوى
 ينازعني إلى البطالة، وعصر ذلك اليوم سأله عما لم أفهمه فأبان معناه على
 عادته وظهر عليه الفرح بما تجدد عندي من الرغبة في المطالعة والميل
 إلى التعم

« كانت هذه الرسائل تحتوي على شيء من معارف الصوفية وكثير
 من كلامهم في آداب النفس وترويضها على مكارم الأخلاق وتطهيرها من
 دنس الرذائل وتزهيدها في الباطل من مظاهر هذه الحياة الدنيا
 « لم يأت عليّ اليوم الخامس الا وقد صار ابتض شيء إليّ ما كنت
 أحبه من لب ولهو، وفخفخة وزهو، وعاد أحب شيء إليّ ما كنت أبغضه
 من مطالعة وفهم وكرهت صور اولئك الشبان الذين كانوا يدعونني إلى
 ما كنت أحب ويهدونني في عشرة الشيخ رحمه الله فكنت لا احتل
 أن أرى واحدا منهم بل افر من لقاءهم جميعا كما يفر السليم من الأجراب
 في اليوم السابع سألت الشيخ ما هي طريقتكم فقال طريقتنا الاسلام
 قلت أو ليس كل هؤلاء الناس مسلمين؟ قال لو كانوا مسلمين لما رأيتهم
 يتنازعون على التافه من الأسماء ولما سمعتهم يخلعون بالله كافرين بسبب
 وبغير سبب. هذه الكلمات كانت كأنها نار أحرقت جميع ما كان عندي

من المتاع القديم - متاع تلك الدعاوى الباطلة والمزاعم الفاسدة، متاع الضرور
بأننا مسلمون ناجون، وان كنا في غيرة ساهين، سأله ما وردكم الذي
ينلي في الخلوات أو عقب الصلوات، فقال لاورد لنا سوى القرآن قرأ
بعد كل صلاة أربعة ارباع مع الفهم والتدبر: قلت أني لي أنت أفهم
القرآن ولم أنسلم شيئاً قال أفراً منك ويكفيك ان تفهم الجملة وبيركها
يفيض الله عليك التفصيل وإذا خلوت فاذا ذكر الله: على طريقة بينها. وأخذت
أعمل على ما قال من اليوم الثامن فلم تمض علي بضعة أيام إلا وقد رأيتني
أطير بنفسي في عالم آخر غير الذي كنت أعهد، (١) واتسع لي ما كان
ضيقاً، وصغر عندي من الدنيا ما كان كبيراً، وعظم عندي من أمر العرفان
والزروع بالنفس الى جانب القدس ما كان صغيراً، وتفرقت عني جميع الهموم
ولم يبق لي الا هم واحد وهو أن أكون كامل المعرفة كامل أدب النفس ولم
أجد إماماً يرشدني الى ما وجهت اليه قسي الا ذلك الشيخ الذي أخرجني
في بضعة أيام من سجن الجهل الى فضاء المعرفة، ومن قيود التقليد، الى
إطلاق التوحيد، - هذا هو الأثر الذي وجدته في نفسي من محبة أحد
أقاربي وهو الشيخ درويش خضر من أهالي (كنيسة ادرين) من مديرية
البحيرة، وهو مفتاح سعادتني ان كانت لي سعادة في هذه الحياة الدنيا،
وهو الذي ردلي ما كان غاب من غيبيتي، وكشف لي ما كان خفي عني مما
أودع في فطرتي،

«وفي اليوم الخامس عشر صرّ بي أحد سكان بلدنا (محلة نصر) فأخبرني

(١) سندكر هنا تم في تاريخه الطول معنى مقاله في تأثير التصوف في نفسه ومالم

يفقه وينبذ ما كان له من المنفعة والضرر الذي تلافاه السيد جمال الدين في رؤية عقيدته الثانية

ان والدي ذهبت الى طنطا اتراني فعلبت ان سيقول لوالدي انني لا ازال في المكتبة فأصبحت مبكرا الى طنطا خوف غتاب الوالد واشتداده في اللوم لانني لو كنت اقت له ألف دليل على انني وجدت في مهربي مطالبه ومطاي لما اقتنع

«ذهبت الى طنطا وكان ذلك قرب آخر السنة الدراسية في شهر جمادى الآخرة من سنة ١٢٨٢ هجرية لكن اتفق ان بعض المشايخ كانت مات بنته فمافة الحزن عليها عن اتمام شرح الزرقاني على العزية وآخر عرض له فارض منه عن اتمام شرح الشيخ خالد على الأجرومية فأدركت كلامها في أوائل الكتاب الذي كان يدرسه وجلست في الدرسين فوجدت نفسي افهم ما أقرأ وما أسمع والحمد لله . وعرف ذلك مني بعض الطلبة فكانوا يلتفون حولي لأطالع معهم قبل الدرس ما استلقاه . وفي يوم من شهر رجب من تلك السنة كنت أطالع بين الطلبة وأقرر لهم معاني شرح الزرقاني فرأيت أمامي شخصا يشبه ان يكون من أولئك الذين يسمونهم بالمجازيب فلما رفعت رأسي اليه قال مامناه : ما أحلى حلوى مصر البيضاء : فقلت له وأين الحلوى التي معك ؟ فقال سبحان الله من جد وجد : ثم انصرف فمددت ذلك القول منه إلهاما ساقه الله الي ليحمني على طلب العلم في مصر دون طنطا

وفي منتصف شوال من تلك السنة ذهبت الى الأزهر وداومت على طلب العلم على شيوخه مع مخالفتي على العزلة والبعد عن الناس حتى كنت استنفر الله اذا كلمت شخصا كلمة لغير ضرورة . وفي أواخر كل سنة دراسية كنت أذهب الى (محلة نصر) لأقيم بها شهرين . من منتصف شعبان الى منتصف شوال . وكنت عند وصولي الى البلد أجد خالي والدي

الشيخ درويشاً قد سبقني اليه فكان يستمر معي بدارسني القرآن والمعلم الى يوم سنري . وكل سنة كان يسألني ماذا قرأت فأذكر له ما درست فيقول : ما درست المنطق ما درست الحساب ما درست شيئاً من مبادئ الهندسة : وهكذا وكنت أقول له بعض هذه العلوم غير معروف الدراسة في الازهر فيقول : طالب العلم لا يمجز عن تحصيله في أي مكان : فكنت اذا رجعت الى القاهرة أتمس هذه العلوم عند من يعرفها فتارة كنت أخطئ في الطلب واخرى أصيب الى ان جاء المرحوم السيد جمال الدين الافغاني الى مصر أواخر سنة ١٢٨٦

« وقد صاحبت من ابتداء شهر المحرم سنة ١٢٨٧ وأخذت أتلقى عنه بعض العلوم الرياضية والحكبية (الفلسفية) والكلامية وأدعو الناس الى التلقي عنه كذلك وأخذ مشايخ الازهر والجمهور من طلبته يتقولون عليه وعينا الاقاويل ويزعمون أن تأتي تلك العلوم قديفسي الى زعزعة العقائد الصحيحة وقديهوي بالنفس في ضلالات تحرمها خيري الدنيا والآخرة فكنت اذا رجعت الى بلدي عرضت ذلك على الشيخ درويش فكان يقول لي : ان الله هو العليم الحكيم ولا علم يفوق علمه وحكمته وإن أعدي أعداء العليم هو الجاهل واعدي أعداء الحكيم هو السفه وما تقرب أحد الى الله بأفضل من العلم والحكمة فلا شيء من العلم بمقتوت عند الله ولا شيء من الجهل محمود لديه الا ما يسميه بعض الناس علماً وليس في الحقيقة يعلم كالمسحر والشعوذة ونحوهما اذا قصد من تحصيلهما الاضرار بالناس : »

هذا ما كتبه للفقيد من مبداء تربيته وتعلمه في رجبته التي كتبها لي قبل اشتداد مرضه الاخير وكان حديثي قبل بشيء من ذلك ومنه أنه لم يكن

يواظب على حضور دروس من لا يفهم أو لا يستفيد منهم وانه ربما كان يحضر درس أحدهم وفي يده كتاب آخر يطالع فيه مدة الدرس وان من شيوخه الذين فهم منهم واستفاد في أول تحصيله الشيخ محمد البسيوني وانه بعد الحضور في الأزهر ثلاث سنين مل الدروس المعتادة كأنه أخذ حظه منها وصارت نفسه تطلب شيئاً جديداً وتميل الى العلوم العقلية ولكنه حضر جميع الكتب وفهمها ولم يكن يرتاح الى إعادة شيء منها وكان الشيخ حسن الطويل ممتازاً في الأزهر بعلم المنطق فحضر عليه ولم يكن بشيء ما في نفسه بل كانت تشوق دائماً الى علم غير موجود فكان يبحث في خزائن الكتب الأزهرية عن طلبته المجهولة فيظفر ببعض الشيء ومما ظن به القطب على الشمسية ناصباً وقرأ الشيخ حسن الطويل لهم شيئاً من الفلسفة ولكن لم يكن يجزم بأن المعنى كذا بل كان الدرس احتمالات أو أشبه بالحزر فيما بينهم حتى جاء السيد جمال الدين فسكنت اليه نفسه من اضطرابها ووجدت عنده جميع طلبتها، وأقصى أمنيته، وأخبرني رحمه الله تعالى ان الذي أخبره بقدم السيد جمال الدين هو أحد المجاورين في رواق الشوام قال له انه جاء مصر عالم افغاني عظيم وهو يقيم في خان الخليلي فمر بذلك وأخبر الشيخ حسنا ودعاه الى زيارته معه فألفياه يمشي فدعاهما الى الأكل معه فاعتذرا فطلق يسألهما عن بعض آيات القرآن وماقاله المفسرون والصوفية فيها ثم بفسرها لهم فكان هذا مما ملأ قلب فقيدنا به عجباً وشغفنه جبالاً التصوف والتفسيرهما قرعة عينه أو كما قال مفتاح سعادته، وأخبرني رحمه الله تعالى انه قرأ على السيد كتاب الزوراء للدواني في التصوف، وشرح القطب على الشمسية والمطالع وسلم العلوم من كتب المنطق، والهداية والاشارات وحكمة العين

وحكمة الاشراف من الفلسفة ، وعقائد الجلال الدواني والتوضيح مع التلويح في الاصول ، والجفيني في الهيئة القديمة وكتابا آخر في الهيئة الجديدة نسبت اسمه .

ثم ان السيد أرشده كثيره من تلامذته الى الانشاء وكتابة المقالات الادبية والاجتماعية والسياسية وصرهم على الخطابة فبرع فقيدها في ذلك حتى صار ابرع من استاذة نفسه لان عبارة السيد رحمه الله تعالى كانت على متانها وبلاغتها لم تصف من كدورة العجمة الى صفاء الانسجام العربي الخالص كعبارة الشيخ ثم ان مجالس السيد في ناديه وسامره كانت كلها مجالس علم وحكمة وأدب وسياسة وقلم كان يفوت فقيدها شيء منها اذ كان يلزمه ملازمة ظله وما يستفيده المرء بالذاكرة في ساعة لا يستفيده بالدرس في ساعات لان المدرس يكافئك كل ما يلقيه اليك سواء كنت تشعر بالحاجة اليه وتمتدده الاستفادة منه أم لا وسواء كنت مستعدا لفهمه أم لا ، وأما المذاكرة فهي مشاركة اختيارية في البحث والانسان لا يختار الا ما يرى نفسه محتاجة اليه ومستعدة لفهمه فمثل المدرس يلقي اليك كمثل من يكافئك أن تأكل مقداراً معيناً من الاطعمة التي قد تماف بعضها ولا تستطيع تناولها الا بكافئة وغثاة فأنت لا تغذي الا ببعضها والباقى إما أن يضر وإما أن لا ينفع ومثل المذاكرة كالطعام الذي تشربه وتتناول منه ما يكفيك فيكون كاه غذاء نافعا . وقد قل بمض علماء التربية من الافرنج انه كلما يطلع من يقيم في مدارس الملم زمانا طويلا . ولقد كانت مجالس استاذنا الفقيه كجالس استاذة (رحمهما الله) تفيض علما وحكمة وأدبا ولكن الفصل بينهما في هذا هو ان السيد كان يلقي الحكمة لكل أحد وأما الشيخ فكان

مخاطب كل أحد أو كل فريق بما يرى انه مستعد له ومتوجه اليه وقد قال لي رحمه الله تعالى ان السيد جمال الدين كان يلقي الحكمة لمريدها وغير مريدها ومن خواصه انه يجذب مخاطبه الي ما يريد وان لم يكن من أهله وكننت أحسنه على ذلك لاني تؤثر في حالة المجلس والوقت فلا تتوجه قسي الكلام الا اذا رأيت له محلا وهكذا الكتابة الخ ما قاله ومنذ كره في عمله من تاريخه ان شاء الله تعالى

تدريسه ودعوته الى اصلاح التسليم في الازهر

كان مفا الله عنه قبل أخذ شهادة التدريس يطالع مع بعض الطلاب الدروس التي يحضرونها في الازهر ثم اتفقت الرغبة على أن يقرأ لطائفة منهم بعض الكتب فقرأ لهم إيساغوجي في المنطق ثم شرح العقائد النسفية للسعد التفتازاني مع حواشيه ثم مقولات السجاني بحاشية العطار وغير ذلك من الكتب التي لم تكن تقرأ في الازهر فكثير سواد المجتمعين عليه وكان يدعوهم الى مطالعة ما لم يعودوا من الفنون والكتب ويفتح لهم أبواب المناكرة والمناقشة ليلا فكانوا يفتالون الليل ولا يشمرون بطوله وفتن الاذكياه بحسن بيانه ودقه فهمه وحسنه أناس منهم فأحفظوا عليه قلب الشيخ عيش فكان ما كان من حادثته معه اذ ذهب ابن للشيخ عيش مع طالب آخر فقالوا ان فلانا يقرأ شرح العقائد النسفية وقد رجح في درسه أمس مذهب المعتزلة على مذهب الاشعرية وكان الشيخ عيش رحمه الله أذنا يصدق بكل ما سمع وكان شديد الفيرة في الدين حديد المزاج سريع الغضب فكبر عليه أن يقرأ أحد الطلاب مثل ذلك الكتاب الذي لم يكن الشيوخ الكبار يتسامون لقراءته فأرسل الي الفقيه فجاءه وهو

يقرأ الدرس في المسجد الحسيني فقال الشيخ عيش بلقني انك تقرباً شرح
المقائد النسفية درسا قال نعم : قال الشيخ عيش وبلقني انك رجحت
مذهب المتزلة على مذهب الاشعرية قال اذا كنت اترك تقليد الاشعري
فلاذا اقلد المعتزلي اذا اترك تقليد الجميع واخذت بالدليل قال الشيخ عيش
اخبرني الثقة بذلك قال هلم الثقة الذي يشهد بفلك فليميز امامنا هنا بين
المذهبين وليخبرنا ايها رجحت : قال الشيخ عيش او مثلك يفهم شرح
المقائد قال الكتاب حاضر وانا حاضر فسلي ان شئت : فكبر على الطلبة
الحاضرين مثل هذه المراجعة من طالب للشيخ عيش المهيب وقال بعضهم
ان هذا يرسل شعره ويجمعه تحت عمامته واخذ عمامته عن راسه ونقط
الحاضرون قترتهم الفقيه رحمه الله تعالى وذهب حاسرا عن راسه فقال
اناس ان الشيخ عيشا ضربه وقال آخرون انه منعه من الدرس وكثرت
الاشاعات والافوال والروايات والاحلام فيه وفي السيد جمال الدين والصواب
ان هذا كل ما حصل وان الفقيه لم يتمتع من قراءة الدرس ولكنه كان
يضع بجانبه عصا وقال اذا جاء الشيخ بمكازه فله هذه العصا وكان من
الشجاعة على ما يعهد عارفوه كما سنبين ذلك في الكلام على اخلاقه . اما
تأثير هذه الحادثة فقد كان أكبر منها بل كان هو مبدأ خوض بعض
الجامدين في دين كل من السيد الحكيم والاستاذ الامام ورحمهما الله تعالى
وسننتد لذلك فصلا خاصا في تاريخ الفقيه نبين فيه انه لم يسلم أحد من
أئمة الدين ولا من كبار الحكماء والصوفية من مثل هذا الطعن وأنه من
منافح حكيمينا قدس الله روحهما وان الذين يتشفون بمثل هذا الخوض من
الاعداء والحاسدين ومن يقاتلهم من الساكنين والمجانين لو عقولوا لكتنوه

وسموا في ازاكته

نعم ان ذلك الغرض والنقول مما تزين به تاريخ هذين الحكيمين
ولكن لانكر ان تأثيره السيء وقع على الأمة الاسلامية عامة وعلى
الازهر خاصة دون الرجاءين اللذين لم يحترم الناس لاسيما عقلاء الأمة
الاسلامية في هذا المصرا أحداً من أهل المشرق كاحترامهم لهما فذاك انه
كان عقبة في سبيل إصلاحهما واستفادة الأمة منهما وهما ما أجور ان عند
الله تعالى بحسن نيتهما وبذلها جهده المستطاع في خدمة امتها وملكها
وقد كاد يترتب على ذلك حرمان فقيدنا من شهادة العالمية ومرتبة التدريس
في الازهر لولا عدل الشيخ البيهقي وإضافته كتب الاستاذ الامام رحمه
الله عن امتحانه ما نصه :

« عرضت نفسي على مجلس الامتحان في ١٣ جمادى سنة ١٢٩٤
هجرية وابتليت في الامتحان أشد الابتلاء لتعصب الأكتف من أعضائه
مع المرحوم الشيخ عايش وكان يعادني على النبي اتباعاً لآراء من لا رشد
عندهم من بداء الطلبة ، وكانوا قد أجمعوا أمرهم على ان لا يمنحوني
درجة ما في العلم وجرت أمور قبل الامتحان يطول شرحها ولكن كان
أمر الله أغلب فخرجت من هذا الامتحان بالدرجة الثانية وصرت مدرسا
من مدرسي الجامع الازهر وأخذت أقرأ العلوم الكلامية والمنطقية الخ
وقد أخبرني رحمه الله ان بعض الشيوخ تقاسموا قبل الامتحان فيما
مؤكدة لا يأخذن فلان درجة ما ولما وقع الامتحان ورأوا من حسن
الجواب مما سأله فوق ما كانوا ينتظرون ، طفقوا يناقشون ويراجعون ،
وينقلون به ويستطردون ، حتى صار الامتحان مناظرة ، تتولاها المشاغبة

والمكابرة ، فمئذ ذلك حلف الشيخ العباسي انه لم يواحد امتحن في عصره مثله وأنه لو كان فوق الدرجة الاولى درجة ممتازة لاستحقها فأراد أحد الشيوخ واظنه الشيخ الرافعي ان يوثق ويصلح فأخذ الورقة وكتب له بالدرجة الثانية وطفق يمرضها على اخوانه الذين كانوا متفتحين على حرمانه ليوتموا عليها فوقعوا ثم أعطوها للشيخ العباسي فأمضاها لهم ولم يجابان يراجعهم بمئذ أن رأى منهم ما رأى فظفروا ببعض المطلوب وهو حرمانه من الدرجة الاولى وما كانوا ضاثرين .

حجى طلبه العلم بعد التدريس والدخول في الاعمال

هذا مجمل سيرة الرجل في تاتي العلم عن الشيوخ منذ بدأ الى أن صار مدرسا وانك لتجد أكثر طلاب العلوم عندنا يسدون أخذ شهادة العالمية غاية التحصيل والتعليم فلا توجه همتهم بعده الا الى استغلال العلم وطلب المال به واحراز الجاه والمكانة عند الناس بما ينالون به من وظيفة وعمل . وان صاحبنا لم يسلك مسلكهم بل سار على سبيل سلفنا الصالح الذين يؤثر عنهم : اطلب العلم من المهد الى اللحد : فكان يقول الى آخر حياته انني لا أزال طالب علم أبتغي المزيد منه في كل يوم . فكان له في طلب العلم ثلاثة أدوار أولها الطلب على طريقة الأزهر المعروفة من المناثشة في عبارات صكتب المؤلفين وقراءة المتون مع الشروح والحواشي والتقارير . سلكها زمنا حتى ملها وتوجهت نفسه الى علم أعلى وفهم أجلى فقبض الله تعالى له ذلك الملامة الحكيم السيد جمال الدين فقرأ له علوما أخرى على طريقة أسهل مسلكا وأقرب غاية ، فاتتاه من الاخلاص الى أرض المبارات الركيكة والاساليب الضعيفة ، والاحتمالات البعيدة ، ورفعه الى سماء عرفان الحقيقة ،

والانصاح عنها بالمبارة الرشيدة ، بمد إطلاقة من قيود تقليد المؤلفين ،
وتمويده على الحكم باليقين ، فهذا هو الدور الثاني وهو خاص كتابه
بالعلوم الاسلامية ، التي كتبت باللغة العربية ، مع شيء قليل من العلوم
الحديثة ، وتطبيق العلم على حال المسلمين الاخيرة ، وأما الدور الثالث فهو
النظر في علوم الافرنج قرأ رحمه الله كثيرا مما ترجم من الكتب ثم تعلم اللغة
الفرنسية فصار يقرأ الكتب فيها لا يكاد يتركها يوما من الايام . وكانت
عنايته بعلوم الاخلاق والنفس وأصول الاجتماع الانساني والتاريخ وفلسفته
وفن التربية أشد من عنايته بسائر العلوم وقلما علم بكتاب لافرنجي يتكلم فيه
عن الاسلام والمسلمين الا واستحضره وقراه وقد قرأ عدة كتب في تربية
الارادة خاصة ، وفي سفره الاخير إلى سويسره تعلم هناك القلم المسند لانه علم
ان في بعض المكاتب الاوربية كتبافيه وان الانكاز نقلوا من حضر موت بعض
ما هنالك من الآثار الحميرية ولذلك دخل شأن في تاريخ العرب والاسلام .
وهذه العلوم الافرنجية هي التي أعطته القوة المظيمة في المدافعة عن الاسلام
وفي زيادة البصيرة بخدمته لانه عرف من أين يهاجمه أعدؤه وكيف ترد
هجماتهم . وكان يقول من لم يعرف لغة من لغات العلم الاوربية لا يعد عالما
في هذا العصر وقد كتب لي في ترجمته عن تعلمه اللغة الفرنسية مانصه :
« بدأت بتعلم اللغة الفرنسية عندما كانت سني أربعين وأربعين
سنة ولكن مبلي الى تعلم لغة أجنبية ابتداء في اثناء الحوادث العراقية فتعلمت
الهجاء ثم تركته ونسيت تقريبا وعندما سافرت الى فرنسا أول مرة أقمت
هناك عشرة أشهر كنت أحرر فيها جريدة العروة الوثقى ولم أتعلم شيئا من
الفرنساوية لان اجتماعي كان بالسيد جمال الدين وبرفاق من العرب واشتغالي

بتحرير تلك الجريدة كان لا يسمع لي بوقت كافٍ للتعلم بدراسة منتظمة فذهب علي ذلك الزمن بدون فائدة في اللغة لا كثيرة ولا قليلة . أما بعد عودتي من النسي الى مصر واشتغالي بالقضاء في المحاكم الاهلية والحكم بها خصوصا في الجنائيات على أصول القوانين الفرنسية وجلوسني بين قضاة ينال عليهم العلم بتلك القوانين في لغتها فقد قوي عندي الميل الى تعلم اللغة الفرنسية حتى لا أكون في معرفة القوانين أضغف بمن أجلس معهم مجلس القضاء وبعد عييتي الى القاهرة واشتغالي بالقضاء في إحدى محاكمها وجدت الوقت والحال مناسبين للبدء في العمل فبحثت عن معلم فوجدت أستاذا لا بأس به فدعوته فجاءني حاملا كتاب نحو في يده (كرامير) فسألته ما هذا فقال كتاب نحو نقلت له لا وقت عندي لان ابتدئ ، وإنما عندي زمن لان أنهي ثم ناولته قصة من تأليف الكسندر دوماس وقلت له أنا أفراوات تصلح لي النطق وتفسر لي الكلم وما عدا ذلك فهو علي والنحو يأتي في اثناء العمل ، وهكذا أتمت الكتاب وكتابا بعده وثالثا عقبه وكنت أطالع وحدي بصوت مرتفع كلما وجدت نسي في يدي خاليا فتعلمت مبادئ اللغة الفرنسية وحصلت منها ما كان يمكنني من القراءة والفهم لكن ما كنت أستطيع الكلام

« سافرت بعد ذلك الى فرنسا وإلى سويسرا عدة مرات في أيام العطلة الصيفية وكنت أحضر دروس العطلة في كلية جنيف وبهذه الطريقة تعلمت اللغة الفرنسية في أوقات الفراغ مع اشتغالي بالقضاء في المحاكم الابتدائية ومحاكم الاستئناف ، ثم ان الذي زادني تعلقا بتعلم لغة أوربية هو أنني وجدت انه لا يمكن لاحد ان يدعي انه علي شيء من العلم يتمكن

به من خدمة أمته ويقندر به على الدفاع عن مصالحها كما ينبغي الا اذا كان يعرف لغة أوربية كيف لا وقد أصبحت مصالح المسلمين مشتبكة مع مصالح الأوربيين في جميع أقطار الأرض وهل يمكن مع ذلك لمن لا يعرف لغتهم أن يشتغل للاستفادة من خيرهم أو للخلاص من شر الشرار منهم» اهـ

الكلام في تربيته خاصة

هذا ما يقال في طلبه للعلم وأما تربيته فقد علم مما صر شيء منها وهو أنه نشأ في بيت يوصف أهله بالأخلاق الفطرية الحميدة التي لا ينقصها الا نور العلم وقد كان له ولم يعن في صباه الا بالفروسية وأعمال الرجولية فكان يلعب بالسلاح ويسابق الناشئين معه على ظهور الجياد ويكثر من السباحة وهذه الاماب مما يحسن أن يربي عليها الولدان بالتصدد كما قال الحكماء وعلما التربية وهي مما يربي عليه أولاد الملوك والامراء في أوروبا . بعد ان أخذ حفظه من هذه التربية الفطرية أخذته الشيخ درويش خضر بالتربية الدينية فالزمه المذلة ومجاهدة النفس . وكان من جبلته أن يأخذ كل شيء بقوة فكان في مدة طلبه للعلم يصوم النهار ويقوم الليل بالصلاة والتلاوة والذكر ويمشي مطرقا لا ينظر الا حيث يضع قدميه ولا يكلم أحدا الا لضرورة وقد ظل عدة سنين لا يلقى نظره على امرأة أجنبية حتى في الطريق . وقد كان لكثرة الانهماك في الذكر والفكر والنظر في كتب التصوف والتنقل في أحوال القوم ومقاماتهم يخرج عن حسه ويزج في عالم الخيال أو عالم المثال كما يقولون فيناجي أرواح السابقين . ولو كان يجيز شرح ذلك لشرحناه ولكنه كان يقول ان ما يحصل للصوفية من الأحوال غير الطبيعية لا يجوز ذكره لغير العارف به ولا يجوز كتابته بحال ولو

كنت ملاكاً لحكمت، يقتل الذين يكتبون ذلك لانهم يفتنون كثير من الناس ولا يبيدون به أحداً، وقال ما معناه ما زج أحد نفسه في عالم الخيال ثم قدر على الخروج منه الا ان يجذب به جاذب آخر ويخرجه منه وذلك قابل، وأقول إن السيد جمال الدين هو الذي أخرجه منه، وورثي به الى ما هو خير منه، ولم يتمكن من ذلك الا بعد ان جراه عليه زمنا عرفه به أنه أعرف بتلك المعاهد، وأسبق الى تلك المشاهد، بما كان يحل له من عقد كلام الصوفية التي يهجر عن حلها، حتى أقنمه بأنه من أفراد أهلها، وسند كرفي التاريخ الكبير الذي نضمه لفقيدنا شيئاً مما كتبه على طريقة الصوفية، وأقول هنا لو كان الجماهير من الناس يعرفون في أيام حادثة الشيخ عايش شيئاً من أمر الرجل في تصوفه وتنسكه لاجروا على الشيخ عايش وان كانت شهرته بالصلاح عظيمة وعلى من ورثي اليه من فساق المجاورين ولما خاضوا في فقيدنا بالذي خاضوا ولكنه كان يبالغ في كتمان ذلك خوفاً من الرياء وحب السمعة والامة مستعدة للشر والشبهة عليه حضور كتب الفلسفة والكلام على عالم غريب وهو السيد رحمه الله أجمعين فلما ان السيد جمال الدين هو الذي نقل فقيدنا من حال الى حال في الترية كما نقله في العلم وكان الشيخ درويش هو الذي مهد له السبيل للأصوين، وقبل ان ننقل من الكلام في تربيته وتعليمه الى الكلام في عمله وإصلاحه نذكر ان الشيخ درويش هو الذي رباه أيضاً على التعرض للإرشاد الديني والتصدي لتبصير الناس فهد السبيل التي سلكها به السيد جمال - سبيل الإصلاح العلمي والسياسي - ذلك ان الشيخ درويش رأى ان صريده قد كملت نفسه بعد المزة الطويلة وكل سلوكه فصار بئامن من المماشرين الذين يقطعون الطريق على المرادين فأصره بمخالطة الناس والتعرض للإرشادهم وقد كتب رحمه الله في ذلك ما نصه:

قلت انني كنت في أوائل مدة طاب العلم بعد مجيئي الى الأزهر في عزلة عن الناس الا من استفيد منه علما أو نصيحة لكن بعد مضي سبع سنين على ذلك - والشيخ يقودني في سبيل الرياضة وقهر النفس على المكروه بالصوم تارة ولبس الخشن والتعرض لانتقاد الناس تارة أخرى - قال لي عند ما رجعت الى محلة نصر في سنة ١٢٨٨ : الى متى هذه العزلة وما الفائدة في العلم وتحصيله اذا لم يكن لك نورا تهتدي به ويهتدي به الناس ؟ ان من المكروه أن تستأثر بالفائدة دون أهل ملتك وان من لم ينفع بما تعلم فقد أضاع أهم ثمرة تقصد من غراس المعرفة فعليك ان تخاطب الناس ومعظمهم وترشدهم الى الطريق القويمة والسنة الصالحة : فذكرت له اسم ترازي من الناس وزهادتي في معاشرتهم وثقلهم على نفسي اذ القيتهم وبعدهم عن الحق ونفرتهم منه اذا عرض عليهم فقال لي : هذا من أقوى الدواعي الى ما حشيتك عليه فلو كانوا جميعهم هداة مهديين لما كانوا في حاجة اليك : ثم أخذ يستصحبني في مجالس العامة وينتج الكلام في الشؤون المختلفة ويوجه الى الخطاب لا تكلم فيتكلم الحاضرون فأجيبهم وانطلق في القول على وجل في أول الامر وما زال بي حتى وجد عندي شي من الالفة مع الناس والامتناس بمكالتهم وفي شوال من تلك السنة ودعني وبكي بكاء شديدا ومات في السنة الثانية رحمه الله تعالى ، اه أقول يظهر انه أحس بأن عمله قد تم بتكميل تربية مریده وأنه ألهم بأنه قد دنا أجله إذ تم عمله فبكي بكاء مودع وللصوفية من هذا الإلهام والشعور ، ما هو معروف مشهور ،

حفظ طور العمل والاصلاح

(تعليق) لو سأل سائل أي الرجال أعظم في الامة وأفضل لاختلف

الجواب باختلاف أفهام الافراد ومذاهبهم فهذا يقول أعظمهم العالم وذلك يقول بل الفيلسوف ، ويقول ثالث بل هو الرجل الصالح فينبري رابع قائلاً بل القائم للناجح ويختلفهم رجل آخر يدعي ان أفضل الناس السياسي الحادق ويقول آخرون أقوالاً أخرى. وإذا رجعت بالجميع الى البرهان رأيتهم يتفقون على ان أعظم الرجال وأفضاهم المصاحون الذين يوجهون عزائمهم الى رفع الأمة من الدرجة الدنيا الى الدرجة العليا، وهؤلاء قلما تجود الاجيال بواحد منهم على كثرة علماء والصلحاء والقواد السياسيين في كل زمان إنما يكون الرجل عظيماً بأمرين أحدهما فطري لا يأتي بالكسب وهو الاستعداد الذي يكون له بكمال الخلقة واعتدال المزاج ، وحسن الوراثة الوالدين والاجداد ، وثانيهما كسبي وهو التربية القويمة والتعليم النافع ، وقد كان استعداد الاستاذ الامام لكل أمر عظيماً حتى كان استعداده هو الاصل في حسن تربيته وتعليمه . فقد علمت مما مر أن فطرته السليمة لم تقبل الاستمرار على حضور دروس لا تفهمها ولم يعرف هذا عن غيره من المبتدئين بطلب العلم حتى أذكيائهم الذين استفادوا ايام المناء فقد كانوا يصبرون على ما لا يفهمون زمناً طويلاً وإذا حفظ أحدهم شيئاً بالتكرار ظن انه هذا فهم وعلم لا سيما اذا حفظ تفسير المائتين من شرحه وحاشيته. ولكن صاحبنا لم يكن يترك المسألة حتى يفهمها ويوقن أو يرجح ان الحكم فيها كذا. ولذلك أسرع اليه المثل من دروس مشايخ الاحتمالات. وكان يقول ان حضور كتب العربية على طريقتهم قد أضر بذهنه وعقله وانه ظل يكس ذهنه وينظفه منها بضع سنين فلم ينظف تمام النظافة . وأما السيد جمال الدين فانه كثيراً ما كان يشرح معنى المسألة حتى تتجلى للأفهام ثم يقرأ عبارة الكتاب ويطبّقها

عليها فان انطبقت والا بان ما فيها من التصير أو يقرأ العبارة ويبحث في دلالتها
 فيقره أو يفنده ويحزم بغيره وبهذه الطريقة ارتقى الى أن يحكم بنفسه في المسائل
 ولا يرضى بالفهم مع التسليم لو أن الكتاب فالذي امتاز به صاحب الترجمة على
 اخوانه الازهريين هو أنه في بدايته لم يرض أن يحضر شيئاً لا يفهمه، وفي نهايته لم
 يرض بما يفهمه الا بعد أن يستشير فيه الدليل فيرضاه له، وأنه لم يقنع بالعلوم المتداوله
 في الازهر بل كان من أوائل عهده بالعلم الى يوم وفاته يطلب العلوم ويقدم منها ما
 يزيد كالأق في نفسه ويمينه على رفع شأن ملته وأمه، ولوانه تعلم في حدائته على
 طريقة قوية كما تعلم النابليون من حكماء أوروبا وعلماهم في المدارس النظامية ولم
 يضع ذلك الوقت الطويل في البطالة وفي الطريقة الازهرية الملتوية بل رأى ما من آياته
 العلمية أضاف ما رأى على أن ما رأيناه يكاد يكون من الخوارق فإنه لم يكن يتكلم
 في علم الا وراه صاحب القديح المبلى فيه حتى كأنه هو الواضع له، فمن شاء أن
 يقتدي بطريقته المثل من الازهريين وغيرهم فليعمل عسى أن يكون من المفلحين
 وأما تربيته فقد علمت مما تقدم آتقانه تربي على طريقة الصوفية القوية الخالية
 من البدع والخرافات حتى ملك نفسه وكتبت أخلاقه وصار الدين وجدانا له ثم
 انتقل من ذلك الى أخذه بالبرهان وأهم ما اتقى له تربية الأبداء أي ملكة
 العزيمة والإقدام فقد كان فيها نسيج وحده في أمته
 تقدم ان الرجل توجهت نفسه الى العمل والاصلاح قبل ان يصير
 مدرسا رسميا فبدأ بإحياء اللغة ونفع روح العلم والدين في الازهر ثم ان
 السيد جمال الدين وجه وجهه الى الإصلاح الاجتماعي والسياسي فعمله ساعده
 وعضده في ذلك فاشتغل بها مدته ثم استقر رأيه على ان الاصلاح محصور في
 إحياء لغة الأمة وإصلاح نفوسها بالتربية الصحيحة والتعليم النافع